يرويها: أشرف أبو اليزيد يرسمها: حسام التهامي

حاوي طشقند

(الحلقة الأولى)

تخطت الساعة منتصف النهار، هبطت طائرة «ماجد» أرض مطار مدينة طشقند، عاصمة جمهورية أوزبكستان، قادمة من الصين. هنأ قائد الطائرة الركاب بسلامة الوصول.

ملأ «ماجد» استمارة الدخول، ثم وقف في طابور طويل أمام نافذة جوازات السفر. تأمل وجوه المسافرين حوله، فاكتشف أنه العربي الوحيد في هذه الرحلة! بدا على ركاب الطائرة أنهم من الأوزبك، فملامحهم واحدة، كما رآهم في صور كثيرة قبل مجيئه، وجوه بيضاء عريضة، عيون ملونة، وأجسام رياضية عملاقة، مع بدانة غالبة.

كانت الملابس البسيطة لمعظم المسافرين تكشف أن أغلبهم من متوسطي الحال، أو الفقراء الذين وفروا ثمن تذكرة السفر إلى الصين ليشتروا من هناك بضائع كثيرة رخيصة. أحضروا معهم أجهزة تلفزيون، وأطباقاً لاقطة للقنوات الفضائية، ودمى أطفال، ولعباً صينية أخرى، وأدوات تجهيز المطبخ، ستائر ومفارش وأغطية، وملابس، حتى أنهم جاءوا من الصين بصناديق من الفاكهة!

فكر «ماجد»:

«ليس هناك سوى سببين لاقتناء كل هذه الأغراض، إما إنها باهظة الثمن في بلادهم، أو أنها غير موجود».

أمام بوابة المطار، كان هناك شخص بانتظار «ماجد»، يحمل لوحة عليها إسمه. تقدم منه «ماجد» وصافحه. رحب به الرجل، وقال لـ«ماجد» بلغة عربية:

«مرحباً بك يا ماجد، أنا إسمي بختيار».

كان بختيار الدليل الذي سيقود رحلة «ماجد» في ربوع أوزبكستان. أرسلته الشركة التي اتفق معها «ماجد» قبل مجيئه. تعلّم بختيار اللغة العربية، والعلوم الإسلامية، في معهد البخاري بالعاصمة طشقند، التي يعيش بها، رغم أنه ولد ونشأ في مدينة بخارى. قال «بختيار» وهو يضع حقائب «ماجد» في صندوق السيارة التي ستقلهما إلى الفندق:

«أنا أرى أصدقاء عرباً بين الحين والآخر. كما أنني عشت في سوريا حينما كانت بلادنا تتبع الاتحاد السوفييتي، قبل أن تستقل كجمهورية إسلامية، في الأول من يناير سنة ١٩٩٢. ساعتها كنت أعمل في المركز الإعلامي بسفارة بلادي بدمشق، وقد أجدت اللغة العربية، وأجيد أيضاً اللهجة الشامية».

ابتسم «ماجد»، وسأل بختيار عن ملاحظة أدهشته حينما اقتربت الطائرة من الهبوط في طشقند. كانت معظم الأبنية التي يراها من النافذة من طابق واحد أو طابقين!

قال بختيار:

«سأشرح لك».

قبل الوصول إلى الفندق، توقفت السيارة في ساحة بها

تمثال من حجر البازلت الأسود، يصوّر التمثال أباً يحمي زوجته وطفله. وفي الخلفية تبدو مشاهد لرجال ونساء قادمين من جمهوريات الاتحاد السوفييتي. قال بختيار:

«في الخامسة من صباح يوم ٢٦ أبريل عام ١٩٦٦ ثار جبل من تحت مدينة طشقند ليزلزل الأرض بقوة ٧ درجات ونصف بمقياس ريختر. ورغم أن مَن رحلوا كانوا ١٥ فقيداً فقط، إلا أن ٣٠٠ ألف شخص من سكان المدينة فقدوا بيوتهم في لحظات. ومن ساعتها نادراً ما يلجأ الجميع للبيوت الشاهقة. لكن المباني العالية اليوم يتم بناؤها بطرق علمية للحماية من الزلازل».

أسفل التمثال كانت هناك صورة لساعة توقفت عقاربها عند لحظة الزلزال، بينما يشق الأرض شرخ يصل بين الساعة الحجرية والتمثال.

قال بختيار بهدوء:

«وُلدت مدينة «طشقند» قبل ألف عام، وعانت كثيراً من الحروب، لأنها تقع على طريق الحرير، فكان الكثيرون من قادة الجيوش يريدون السيطرة عليها. لكن الله سيحفظها بإذنه تعالى من كل سوء، ما دام أهلها يحافظون على دينهم. وستجد أن هناك اهتماماً كبيراً

بالدراسة الدينية وترميم الآثار الإسلامية والتراث الفكري لعلماء أوزبكستان الأوائل».

في الفندق سلّم ماجد جواز سفره إلى موظفة الاستقبال. فطالما هو في المدينة يبقى جواز السفر بالفندق، ويأخذه عندما ينتقل إلى مدينة أخرى. تسجيل أسماء وبيانات زوار البلاد ضروري لمعرفة خط سيرهم داخل جمهورية أوزبكستان، فهذا هو القانون، الذي يحرص «ماجد» على اتباعه في البلاد التي يزورها.

بعد الراحة لمدة ساعة، تناول فيها «ماجد» وجبة الغداء، بدأ برنامج رحلته في طشقند بصحبة بختيار. زار «ماجد» معهد الاستشراق المسمى باسم العالم أبي الريحان البيروني، الذي ألّفَ وترجم ١٨١ كتاباً، منها ٢٦ كتاباً عن الهند.

كان المبنى الحجري يحمل اسم البيروني مع طائفة من الأسماء الأخرى لعلماء أوزبكستان تزين أسماؤهم جدار البناء الذي يختفي وسط غابة من الأشجار!

قال بختيار:

«يساعد هذا المعهد طلاباً من كل أنحاء العالم بالإطلاع على مخطوطاته النادرة، لأن أوزبكستان تُعتبر خزانة مخطوطات الثقافة الإسلامية فلدينا هنا ثلاثون ألف مجلد، كما تتوزع مخطوطات أخرى أكثر لحضارتنا الإسلامية في مكتبة إدارة مسلمي أوزبكستان، ومتحف علي شيرنوائي للأدب، وجامعة طشقند الإسلامية، ومعهد الإمام البخاري، والمكتبة الوطنية».

في المساء دعا بختيار «ماجد» إلى حفل عشاء بالفندق، تصاحبه فقرة طريفة. قال بختيار وهما يجلسان على منضدتهما أمام خشبة المسرح:

«ستشاهد اليوم عرضاً مدهشاً ومثيراً».

بدأ العرض بفقرات روتينية عادية تعتمد على خداع البصر، سواء باللعب بالورق، وسكب الماء في الصحف دون أن يسقط. ثم جاءت قمة الإثارة حين بدأ الحاوي يشير إلى بعض الجالسين ليقفوا، ثم يخبرهم بالوجهة التي قدموا منها.

سأل بختيار «ماجد» إن كان يحب أن يختبره. نهض «ماجد» وسأل الحاوي إن كان يعرف من أين أتى؟ سكت الحاوي لحظة، وجَّه العصا التي يمسكها نحو وجه «ماجد» وهو يتأمل شاشة صغيرة كالبلورة وضعها أمامه. ثم قال:

«اسمك «ماجد» وأنت قادم من دولة الإمارات العربية المتحدة، لكنك مررت قبل القدوم إلى طشقند بالصين.. أليس كذلك»؟

تابعوا رحلة ماجد ومفاجآتها الأربعاء القادم